تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بمجتمع السلف

بحثٌ مقدّم إلى (المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم)

مقدّم البحث /

د / محمد عطاالله العزب

مدرس بجامعة الأزهر

قسم التفسير وعلوم القرآن

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وإمام المرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد ....

إن هذا القرآن هو الروح الذي نفخه الله في عرب الجاهلية ؛ فأخرج منهم خير أمة أُخرجت للناس ! وانبعثوا بروح القرآن من رماد الموت الحضاري ؛ طيوراً حية تحلّق في الآفاق ، وحوّلوا آيات القرآن إلى منهج حياةٍ متكامل ، بأوامره يأتمرون ، وبنواهيه ينتهون ، بل حوّلوها إلى رجال تتحرك في واقع البشر؛ فكان القرآن مصدر عِزّهم وشرفهم وسيادتهم ، ومن ثَمَّ جعلهم القرآن قادة وسادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للإبل والغنم .

وفي المقابل ، فليتأمل المنصف حال الأمة حين هجرتْ هذا القرآن : تلاوةً ، وتدبراً ، وعملاً ، وتحاكماً، كيف انحدرت في مهاوي الذُّل، ودَرَكات الهوان!

ولن يجد الإنسان صعوبة في البرهنة على ذلك ، بل يكفي أن يجُول ببصره في واقع العالم الإسلامي اليوم: اجتماعياً ، وثقافياً ، وسياسياً ، وعسكرياً ، ليرى نتاج بُعدها عن مصدر عزّها الذي نصّ القرآن عليه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

لذلك كان لزامًا علينا إن كنا نريد لأمتنا أن تستعيد مجدها وشهودها الحضاري أن نعيد تنظيم علاقتنا مع القرآن الكريم وِفق المنهج الذي ارتضاه الله لنا .

وهذا المنهج يكمن في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] ويكمن أيضًا في علاقة الرسول الكريم ﷺ مع القرآن ، فقد كان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض

فالقرآن الذي صنع بالأمس أمة الإسلام من حطام الأمم هو ذاته الموجود بين أيدينا اليوم ، لكن الفرق الذي يبدو واضحًا بين الحالين هو منهج التعامل مع هذا القران ، فالواقع الذي تعاني منه مجتمعات المسلمين يُسفر بوضوح عن خَللٍ في المنهج الذي يتم التعامل به مع القران ، وإلا لما استمر هذا التخلُّف والتمزق .

ومن هذا المنطلق يأتي هذا البحث الذي هو بعنوان : " تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بمجتمع السلف " والذي يشارك في المحور الثاني من محاور هذا المؤتمر المبارك .

أهداف البحث :

١. بيان منهج السلف الصالح في تدبر القرآن .
٢. إظهار التجارب التدبرية عند السلف الصالح ، وأثرها في ارتقاء مجتمعهم .
٣. بيان أثر تدبر القرآن في النهوض الحضاري بمجتمع السلف الصالح .

خطة البحث :

يشتمل هذا البحث على تمهيد ، ومبحثين :

التمهيد : **في بيان معنى التدبر** .

المبحث الأول : **منهج السلف الصالح في تدبر القرآن** : وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : حال العرب قبل وبعد نزول القرآن .

المطلب الثاني : منهج السلف الصالح في تلقي القرآن وتدبّره .

المطلب الثالث : نماذج تدبرية في عهد السلف الصالح .

المبحث الثاني : **أثر تدبُّر القرآن في النهوض الحضاري بمجتمع السلف** . وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أثر تدبُّر القرآن في النهوض الحضاري الاجتماعي .

المطلب الثاني : أثر تدبُّر القرآن في النهوض الحضاري الأخلاقي .

المطلب الثالث : أثر تدبُّر القرآن في النهوض الحضاري العلمي .

ثم ذُيِّل البحث بخاتمة فيها بيان لبعض النتائج والتوصيات .

تمهيد

معنى التدبر

• التدبر لغة :

بالنظر والاطلاع في أقوال أهل اللغة نجد أن أصل معنى التدبر مأخوذ من النظر في أدبار الشيء وعواقبه ونهاياته[١] .

ففي معجم مقاييس اللغة : " أصل التدبر من: دَبَرَ – بفتح الدال والباء– ، وجُلُّه في قياس واحد ، وهو : آخر الشيء ، وخلفه ؛ خلاف قُبُله"[٢] .

وفي لسان العرب : " دبّر الأمر وتدبّره أي نظر في عاقبته وعرف الأمر تدبرا أي بآخره . فتدبُّرُ الكلام ، أي النظر في أوله وآخره ، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة.. والتدبُّر في الأمر: التفكّر فيه" [٣] .

• التدبر اصطلاحاً :

يمكن تعريف التدبر اصطلاحاً بأنه : " الوقوفُ مع الآيات والتأمّلُ فيها ، والتفاعلُ معها ؛ للانتفاع والامتثال "[٤] .

فلابد من تقييد التدبّر بالعمل بمقتضى الآيات والامتثال لها .

ولعل مما يؤيد هذا القيد هو أن السلف الصالح فسّروا التدبّر والتلاوة بالعمل ، وهذا تفسير باللازم .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٢١] : يعملون به حق عمله[٥] .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] : تدبُّر آياته : اتباعه[٦] .

---

١) ينظر : مختار الصحاح (ص٩٦) ، لسان العرب ٢٦٨/٤ ، التعريفات للجرجاني (ص١٤٥) ، المعجم الوسيط ٢٦٩/١ .

٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٦٦/٢ ، مادة (د ب ر) .

٣) لسان العرب ٢٦٨/٤ ، مادة (د ب ر) .

٤) مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم ، د / محمد الربيعة (ص٣) .

٥) تفسير مجاهد (٢١٢) .

٦) تفسير البغوي ٨٨/٧ .

وارتباط التدبر بالعمل مسأله مهمة ، ينبني عليها البحث ؛ إذ أن النهوض الحضاري لمجتمع السلف كان نتيجة لامتثال السلف للقرآن وعملهم بمقتضى آياته ، كما سيتضح ذلك من خلال البحث .

المبحث الأول

منهج السلف الصالح في تدبر القرآن

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : حال العرب قبل وبعد نزول القرآن .

المطلب الثاني : منهج السلف الصالح في تلقّي القرآن وتدبره .

المطلب الثالث : المطلب الثالث : نماذج تدبرية في عهد السلف الصالح .

المطلب الأول

حال العرب قبل وبعد نزول القرآن

أولاً : حال العرب قبل نزول القرآن :

إن الناظر إلى حال العرب – بل والبشرية جميعاً – قبل نزول القرآن على قلب نبينا محمد ﷺ لا يحتاج كثير تأمل لبيان حالهم ، فقد كانت أحوالهم تنبئ عما وصلوا إليه .

كانت جاهلية العرب تَرْزَح في ظلامٍ دامس ، وجهل مُطبِق ، وخواء روحي لا يوصف .

وصل العرب – قبل نزول القرآن – إلى درجةٍ شديدة من الانحطاط الديني ، يعانون من أدواء خُلقية واجتماعية ، جعلت منهم أمة منحطّة الأخلاق ، فاسدة المجتمع ، حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية .

فقد كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة ، وفشا فيهم الربا والقمار ، وشُرب الخمور ، وركوب الفواحش ، ووأْد البنات ، وإراقة الدماء ، حتى صارت الحرب مسلاة لهم ، وفخراً بينهم .

ويكفي استدلالاً لبيان هذا الحال أن نسوق ثلاثة أدلة لبيان ما ذكرنا .

الأول : ما ورد عن عياض بن حمار المجاشعي ، أن رسول الله ﷺ ، قال ذات يوم في خطبته: (.... ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمَقَتهم عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب)[١] .

الثاني : الحوار الذي دار بين جعفر بن أبي طالب والنجاشي ، فقد قال جعفر : " أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف " [٢] .

الثالث : ما جاء عن أبي رجاء العطاردي ، يقول: " كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا هو أخْيَر منه ألقيناه ، وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا جُثْوة[٣] من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طُفْنا به "[٤] .

فهذه الأحاديث والآثار تلقي الضوء على روح الجاهلية التي سيطرت على العرب ، وعفَن ضميرهم ، واختلال القيم فيهم ، وسواد الظلم والعبودية ، وغاشية الكفر والضلال والظلم التي اجتاحتهم .

ثانياً : حال العرب بعد نزول القرآن :

نزل القرآن على قلب نبينا محمد ﷺ فأصلح الله به العقائد ، وطهّر الأخلاق ، ونظّم حياة الناس على الحق والعدل والسلام ، أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ومن جوْر الأديان إلى عدل الإسلام .

نزل القرآن على هذه الأمة فأعاد صياغتها ، وأحدث بهم وفيهم أغرب انقلابٍ عرفته البشرية في تاريخها ، " وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء : كان غريباً في سرعته ، وكان غريباً في عُمقه ، وكان غريباً في سعته وشموله ، وكان غريباً في وضوحه وقُربه إلى الفهم " [٥] .

فهذه الأمة التي نزل عليها القرآن — وقد كانت ما كانت – تحوّلت تلقائيًا إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد ، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعي ، ولا يُعرف فيها نظام الطبقات ، إلى أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع على الشعوب .

وأضحت هذه الأمة بهذا القرآن سادة الأمم وقادتها ، فتحوا به الأمصار ، وملكوا الأقطار ، كسروا به الأكاسرة ، وقصروا به القياصرة ، وأذلّوا به الجبابرة ، وبلغوا به من المجد ما بلغ .

---

١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب / الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب / الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم (٢٨٦٥) ٤/٢١٩٧ .

٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم (١٧٤٠) ٣/٢٦٥ .

٣) جثوة : شيء من التراب يُجمع حتى يصير كوماً . النهاية (ج ث ى) .

٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / المغازي ، باب / باب وفد بني حنيفة ، وحديث ثمامة بن أثال ، رقم (٤٣٧٦) ٥/١٧١ .

٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للشيخ / أبي الحسن الندوي (ص٨٥) .

ووجدنا بدويًا كربعى بن عامر ﷺ يقول لقائد الفرس : " الله ابتعثنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جوْر الأديان إلى عدل الإسلام "[(١)] .

وكم هو الفرق بين تلك الأمة التي انتقلت من رعي الغنم إلى قيادة الأمم ، وما كان السبب إلا هذا القرآن بلا ريب ، فالصدر الأول من هذه الأمة " لم يكن صالحاً بالجبلّة والطبع ، فالرعيل الأول منهم – وهم الصحابة –كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب ، وإنما أصلحهم القرآن لما استمسكوا بعُروته واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكّموه في أنفسهم، وجعلوه ميزاناً لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزَكّية ، وشرائعه العادلة في أنفسهم ، وفيمن يليهم ، كما أمر الله أن تُقام ، فبذلك أصبحوا صالحين مُصلحين ، سادة في غير جبرية ، قادة في غير عنف "[(٢)].

وكل ذلك لأنهم أحسنوا التعامل مع القرآن تلاوة وفهماً وتدبراً وامتثالاً ، فأحسن القرآن وفادتهم ، وتسنّموا به ذروة المجد .

وفي المبحث الثاني – بإذن الله – تفصيل شافٍ لحال العرب بعد نزول القرآن من خلال الحديث عن دور التدبر في النهوض الحضاري بمجتمع السلف .

المطلب الثاني

منهج السلف الصالح في تلقّي القرآن وتدبّره

إن من تأمل حياة سلفنا الصالح مع القرآن ، وجد لهم منهجاً في تلقّي القرآن وتدبّره ، وحقيق بمن يريد سلوك طريقهم أن يتعرّف على منهجهم في تلقّي القرآن وتدبّره ، ويمكن تحديد معالم هذا المنهج فيما يلي :

أولاً : يقينهم بمنزلة القرآن ، وإيمانهم بقيمته :

فمن عرف قيمة الشيء اعتنى به واهتم به ، والقلب إذا أحب شيئاً تعلّق به ، واشتاق إليه ، فإذا أحب القلب القرآن تلذّذ بقراءته ، واجتمع على فهمه ، فيصل بذلك إلى مقصوده وهو التدبر والعمل بالقرآن .

والرعيل الأول هم أكثر الأجيال إيماناً بالقرآن ، وبالثقة الكبيرة فيه كمصدر متفرّد للهداية . وقد ظهر ذلك من خلال آثارهم المنقولة في بيان عظمة القرآن وقيمته .

---

١) البداية والنهاية لابن كثير ٦٢٢/٩ .

٢) آثار البشير الإبراهيمي ٢٢٧/٤ .

- يقول ابن مسعود ﷺ : " من أحب أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فلينظر : فإن كان يحب القرآن ، فهو يحب الله وَرَسُولَهُ "[١] .
- وقال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " ضمن الله لمن قرأ القرآن ، واتبع ما فيه أن لا يضل ولا يشقى ، ثم تلا: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] "[٢] .
- ويقول البخاري : " لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقّه إلا الموقن "[٣] .

فسلفنا الصالح عظّموا نعمة القرآن ، واستشعروا مِنّة الله بها على هذه الأمة ، وقدروها حق قدرها ، ومن ذلك ما ورد أنه لما قدم خَراج العراق إلى عمر ﷺ خرج عمر ﷺ ومولى له فجعل يعدّ الإبل فإذا هو أكثر من ذلك ، فجعل عمر ﷺ يقول : الحمد لله ، وجعل مولاه يقول: هذا – والله – من فضل الله ورحمته ، فقال عمر ﷺ : كذبتَ ، ليس هذا ، هو الذي يقول الله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] وهذا مما يجمعون[٤] .

فسلفنا الصالح كانوا يعدّون الفضل الأول والرحمة الأولى هي ما جاءهم من الله من موعظة وهدى ، وأما المال والثراء الذي يأتيهم من الله فهو تبَعٌ لذلك .

ثانياً : تعلّمهم الإيمان قبل القرآن :

فالرعيل الأول من الأمة المحمدية غُرِسَ في قلوبِهم تعظيمُ الله ، وتعظيمُ أمره ونهيه ، فسَهُلَ عليهم بعد ذلك تلقِّي الأحكامِ الشرعية .

" وهذا المنهج قد اتخذهَ القرآنُ في تربيتِهِ للصحابةِ أوَّل الإسلام ، حيث كان أوَّل نزولِ القرآنِ تَرْبِيةً على الإيمانِ في السُّور المكية – وخاصّةً المفصَّل منها– فكلُّه في تَرسِيخِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخر ، فأَوْرَثَ في نفوسِهم الإيمانَ الصحيحَ والتعظيمَ للقرآن ، وهَيَّأَ نفوسَهم لِتَلَقِّي تَوجيهاتِه "[٥] .

وقد ورد في هذا المعنى أثار تبيّن أن النبي ﷺ اتبع هذا المنهج مع صحابته ، ونقلوه لمن بعدهم ، فكان له عظيم الأثر في انتفاعهم بالقرآن .

يقول عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – : " لقد عشنا بُرْهة من دهرنا وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلّم حلالها وحرامها ، وما ينبغي أن يُوقف عنده فيها كما

---

١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٦٥٧) ١٣٢/٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٨٦١) ٣٩٤/٣ .

٢) قيام الليل للمروزي (ص١٧٣) .

٣) صحيح البخاري ١٥٥/٩ .

٤) تفسير ابن كثير ٢٧٥/٤ .

٥) منهج السلف في تلقي القرآن وتدبره ، د / محمد الربيعة .

تعلّمون أنتم القرآن " ، ثم قال : " لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره ، ولا ما ينبغي أن يُوقف عنده منه ، ينثره نثْر الدَّقَل[١] "[٢] .

ويؤكد على هذا المعنى الصحابي الجليل جُندب بن عبد الله ﷺ بقوله : " كنا مع النبي ﷺ ونحن غلمان حَزَاوِرة[٣] فتعلّمنا الإيمان قبل القرآن ، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا إيمانًا "[٤] .

ثالثاً : حرصهم على التلاوة اليومية للقرآن :

إن كثرة ملازمة القرآن وتلاوته يوشك بها المسلم أن يُفتح له باب التدبر ، ومن أكثر الطرْق قارب الدخول ، وعلى قدر ما يعطي الإنسان للقرآن سيعطيه القرآن ، ومن هنا تأتي أهمية التلاوة اليومية للقرآن كمفتاح للتدبر .

وكان النبي ﷺ حريصًا على قراءة القرآن كل يوم ، فلما جاء وفد ثقيف إلى المدينة أنزلهم رسول الله ﷺ في قُبّة بين المسجد وبين أهله ، فكان يأتيهم ويُحدِّثهم بعد العشاء ، وفي ليلة من الليالي تأخر عليهم ثم أتاهم فقالوا له: يا رسول الله لبثتَ عنا الليلة أكثر مما كنت تلبث ؛ فقال: (نعم ، طرأ عليّ حِزْبي من القرآن ، فكرهت أن أخرج من المسجد حتى أقضيه)[٥] .

وقد انتقل هذا الحرص من النبي ﷺ إلى أصحابه من بعده ، وكان هذا الأمر مشهوراً بينهم ، يقومون به ويؤدّونه كما طُلب منهم ، لا يتهاونون به .

قال الأوزاعي : " كان يقال: خمسٌ كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان : لزوم الجماعة واتباع السنة ، وعمارة المسجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيل الله "[٦] .

وقد قال عثمان بن عفان ﷺ : " لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا ، وإني لأكره أن يأتي علي يوم لا أنظر في المصحف " وما مات عثمان حتى خُرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه[٧] .

وقد كان للسلف وِرد يومي من القرآن لا يتكاسلون في القيام به ، ويحاسبون أنفسهم على ذلك .

---

١) الدقل : رديء التمر ويابسه . النهاية (د ق ل) .

٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم (١٠١) ٩١/١ ، وصحّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

٣) حزاورة : جمع الحزور ، وهو الغلام إذا اشتد وقوي . ينظر : النهاية (ح ز و ر) .

٤) أخرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب / المقدمة ، باب/ في الإيمان برقم (٦١) ٣٢/١ ، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٦٧٨) ١٦٥/٢ ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة .

٥) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب / الصلاة ، باب / تحزيب القرآن برقم (١٣٩٣) ٥٥/٢ ، وابن ماجة في سننه ، كتاب / إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب/ في كم يستحب يُختم القرآن برقم (١٣٤٥) ٤٢٧/١ ، وأحمد في مسنده برقم (١٦١٦٦) ٨٨/٢٦-٨٩ .

٦) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٤٢/٦ .

٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٠٣٠) ٥٠٩/٣ .

فمن ذلك :

- عن أبي بكر بن عمرو بن حزم ، أن رجلا استأذن على عمر بالهاجرة فحجبه طويلا ثم أذن له فقال: إني كنت نمتُ عن حزبي فكنت أقضيه[١] .
- عن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: كنا نأتي عائشة قبل صلاة الفجر ، فأتيناها ذات يوم فإذا هي تصلي ، فقالت : نمتُ عن حزبي في هذه الليلة فلم أكن لأدعه[٢] .
- ما ورد عن عروة بن الزبير أنه كان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظرا ، ويقوم به الليل ، فما تركه إلا ليلة قُطعت رِجْله ، ثم عاود حِزبه من الليلة المقبلة[٣] .

إنه الحرص على عدم ترْك هذا الورد اليومي مهما حالت دون الحوائل ، أو اعترضته العوارض ؛ لأنهم يعلمون يقيناً أن هذا هو غذاء القلب الذي لا يحيا بدونه .

والمقصود من المداومة اليومية على تلاوة القرآن " أن الإنسان من طبيعته النسيان ، وكذلك لتعرّضه المستمر للمغريات والملهيات خلال يومه وليلته ؛ كان من الأهمية بمكان أن يداوم على قراءة القرآن لتُحدث له دوام التذكرة والتبصرة ، وليُعَوِّض بالقرآن ما فقده من إيمان ، وليس ذلك فحسب بل وليمد قلبه بالروح التي تجعله دومًا في إقبال على الله .

من هنا كانت التوجيهات النبوية المتعددة بكثرة تلاوة القرآن ، وتعاهده كل يوم ، وحتى لا تملّ النفس كان رصد الجوائز والأجر العظيم لكل من قرأ حرفًا من القرآن ليستمر الحافز والدافع لديها للقراءة ؛كل ذلك ليتحقق المقصود من اللقاء بالقرآن "[٤] .

رابعاً : اهتمامهم بترتيل القرآن :

أمر الله رسوله ﷺ بترتيل القرآن مؤكّداً هذا الأمر بمصدر الفعل فقال : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤] ، وقال سبحانه : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ؛ لأن الترتيل له وظيفة كبيرة في الطرْق على المشاعر ، ومن ثَمّ استثارتها وتجاوبها مع الفهم الذي سيولّده التدبر ؛ لينشأ بذلك الإيمان حينما يتعانق الفهم مع التأثر ، ومن هنا تأتي أهمية الترتيل كمفتاح من مفاتيح التدبر التي حرص عليها سلفنا الصالح .

وقد امتثل نبينا ﷺ أمر ربه في ترتيل القرآن ، فكانت قراءته هادئة، مترسّلة، حزينة كما أمره ربه فكان يرتّل السورة حتى تبدو وكأنها أطول من أطول منها .

---

١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٤٧٨٢) ٤١٦/١ .

٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٤٧٨٤) ٤١٦/١ .

٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٧٨/٢ ، سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٢٦/٤ .

٤) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ، د / مجدي الهلالي (ص١٣٤) .

وكان يمدّ الحروف في نهاية الآية ليسمح للعقل بتفهم الخطاب الإلهي ، وللقلب بالتجاوب معه ، والاتعاظ به .

ولقد وصفت أم سلمة – رضي الله عنها- قراءة رسول الله ﷺ بأنها " قراءة مفسّرة حرفًا حرفًا " [١]

وفي حديث حفصة – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ كان يقرأ بالسورة فيرتّلها حتى تكون أطول من أطول منها[٢] .

وقد اعتنى الصحابة ﷺ بالترتيل ، ووجّهوا نظر من بعدهم إليه ؛ لأن القراءة المتأنية أدعى لحسن الفهم ولأن الترتيل معناه التمهل والتأمل والتدبر ، وذلك معين على الفهم والعمل ، والمعرفة والامتثال .

- فقد أنكر عبد الله بن مسعود ﷺ على نهيك بن سنان سرعته في القراءة لما قال له : إني لأقرأ المفصّل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشِّعر[٣] ؟ إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه، فنفع[٤] .
- وسئل مجاهد بن جبر عن رجل قرأ البقرة وآل عمران ، ورجل قرأ البقرة ، قيامهما واحد ، وركوعهما واحد ، وسجودهما واحد ، وجلوسهما واحد ، أيهما أفضل ؟ فقال: الذي قرأ البقرة ، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] [٥]
- وقال محمد بن كعب القرظي : " لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ " إذا زُلزلت " ، و" القارعة " لا أزيد عليهما ، وأتردد فيهما وأتفكر ، أحب إلي من أن أهذّ القرآن ليلتي هذًّا " أو قال: " أنثره نثْرا "[٦] .

خامساً : قيامهم الليل بالقرآن :

إن قراءة القرآن والقيام به في الليل من أعظم الوسائل المساعدة على تدبر القرآن ، وتذكّر معانيه ، وتثبيتها في القلب .

وقد أكد القرآن والسنة النبوية على هذه المعاني :

---

١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب / أبواب فضائل القرآن ، باب/ ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ برقم (٢٩٢٣) ١٨٢/٥ ، وأحمد في مسنده برقم (٢٦٥٢٦) ١٤٧/٤٤ ، والنسائي في سننه ، كتاب / الافتتاح ، باب / تزيين القرآن بالصوت برقم (١٠٢٢) ١٨١/٢ .

٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب / صلاة المسافرين ، باب / جواز النافلة قائما وقاعدا برقم (٧٣٣) ٥٠٧/١

٣) الهذّ : سرعة القطع . أراد أتهذ القرآن هذا فتسرع فيه كما تسرع في قراءة الشعر؟ النهاية (هـ ذ ذ) .

٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٨٢٢) ٥٦٣/١ .

٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم (٤١٨٨) ٤٨٩/٢ .

٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٠١٦٠) ١١٤/٦ .

- فقال ربنا : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] "فدلت الآية على أن التهجد بالقرآن طريق للوصول إلى المقامات العالية في الآخرة "(١)
- وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ١ – ٥]

" فدلت الآية على أن القيام بالقرآن هو السبيل لتحمّل الأحمال الثقيلة سواء في ذلك الدينية أو الدنيوية ، فهو الطريق لمواجهة وحل مشاكل وصعوبات الحياة كلها " (٢) .

- وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال : (إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره ، وإذا لم يقم به نسيه)(٣) .

يقول ابن حجر – رحمه الله – عن مدارسة جبريل لرسول الله ﷺ في كل ليلة من رمضان : " المقصود من التلاوة الحضور والفهم ؛ لأن الليل مظنة ذلك ، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية "(٤)

وهناك شواهد كثيرة تدل على اقتران قراءة القرآن بالليل .

وقد أدرك سلفنا الصالح قيمة وأهمية قيام الليل بالقرآن فحرصوا عليه ، وربّوا عليه أنفسهم ومَن بعدهم ، وكان هذا شعارهم رجالًا ونساء ، والذي كان يسير في طرقات المدينة ليلا فلن تخطئ أذناه آيات القرآن وهي تنساب من كل بيت ، فالجميع يقرأ ويترنم ويبكي ، ويستشعر حلاوة الإيمان ، فيدفعه ذلك إلى مزيد من القراءة بتدبر وترتيل ، حتى في أصعب أوقاتهم – أوقات الجهاد – لم يكونوا يتركون قيام الليل ؛ لعلمهم بقيمته وأهميته .

- فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال : النبي ﷺ : (إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار)(٥) .
- ومر النبي ﷺ على امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ [الغاشية: ١] فقام يستمع ويقول: (نعم ، قد جاءني)(٦) .

---

١) مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة ، د / خالد اللاحم (ص٦١) .

٢) مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة ، د / خالد اللاحم (ص٦١) .

٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب / صلاة المسافرين ، باب / الأمر بتعهد القرآن برقم (٧٨٩) ٥٤٤/١ .

٤) فتح الباري لابن حجر ٤٥/٩ .

٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / المغازي ، باب/ غزوة خيبر برقم (٤٢٣٢) ١٣٨/٥ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب / الفضائل ، باب / من فضائل الأشعريين برقم (٢٤٩٩) ١٩٤٤/٤ .

٦) تفسير ابن كثير ٣٨٤/٨ .

- وتصف هند بنت عتبة قبل إسلامها لأبي سفيان حال الصحابة بعد دخولهم مكة فتقول : أريد أن أبايع محمدًا. قال أبو سفيان: قد رأيتك تكفرين ؟ قالت : إي والله ، والله ما رأيت الله –تعالى– عُبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة ، والله إن باتوا إلا مصلِّين قيامًا وركوعًا وسجودًا "(١) .
- بعد انتهاء معركة القادسية وانتصار المسلمين كتب سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى عمر بن الخطاب ﷺ كتابا يخبره فيه بالفتح ، فكان مما فيه: " ... وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله ، فإنه بهم عالم ... كانوا يُدوّون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل كدوي النحل ، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود "(٢) .
- عن الحسن بن علي – رضي الله عنهما – قال : " إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبّرونها بالليل ، ويتفقّدونها في النهار "(٣) .

وقد نعى سلفنا على من نام عن قيام الليل بالقرآن ، وعدّوا ذلك ذماً في حق المسلم .

- عن أبي رجاء قلت: للحسن – رحمه الله – : ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به ، إنما يصلي المكتوبة ؟ قال: " لعمر الله ذاك إنما يتوسد القرآن(٤) "(٥) .

فبهذه الآثار يتبيّن أن قيام الليل بالقرآن " يمكن أن يُشبّه باجتماع الأكسجين مع الهيدروجين ، حيث ينتج من تركيبهما الماء الذي به حياة الأبدان ؛ فكذلك اجتماع القرآن مع الصلاة ينتج معه حياة القلب وصحته وقوته "(٦) .

سادساً : ترديد الآيات التي تؤثّر في القلب :

إن من منهج السلف الصالح في تدبر القرآن : ترديد الآية أو الآيات التي حدث معها تجاوب وتأثر قلبي ؛ حتى يتسنّى للقلب الاستزادة من النور الذي يدخل ، والإيمان الذي يزيد في هذه اللحظات .

فتكرار الآية أو الآيات أدعى إلى حُصُول الإيمان وذوْق حلاوة الْقرْآن .

وقد نصّ العلماء على أن هذا كان دأب السلف الصالح .

قال النووي – رحمه الله – : " وقد بات جماعة من السلف يتلون آيه واحدة يتدبرونها ، ويردّدونها إلى الصباح "(١) .

---

١) رهبان الليل ، د / سيد حسين العفاني ١/ ٣١٠ .

٢) البداية والنهاية لابن كثير ٦٣٦/٩ .

٣) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (ص٥٤) .

٤) يتوسد القرآن : لا ينام الليل عن القرآن ولم يتهجد به ، فيكون القرآن متوسدا معه ، بل هو يداوم قراءته ويحافظ عليها . النهاية (و س د) .

٥) قيام الليل للمروزي (ص٢٥) .

٦) مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة ، د / خالد اللاحم (ص٦٣) .

وقال ابن القيم – رحمه الله – : " وَهَذِه كَانَت عَادَة السّلف يردد أحدهم الآية إِلَى الصَّباح "[٢] .

وهذه نماذج تدل على ثبات هذا المنهج عندهم :

- قال أبو ذر ﷺ : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء ، ثم رجع إلى أهله ، فلما تكفأت عنه العيون رجع إلى مقامه فجئت فقمت خلفه قبل أن يركع ، فأومأ إليّ بيده فقمتُ عن يمينه ، ثم جاء عبد الله بن مسعود ﷺ فقام خلفنا فأومأ إليه بيده فقام عن شماله ، فقام رسول الله ﷺ حتى أصبح يتلو آية واحدة من كتاب الله بها ويركع بها ويسجد بها يدعو حتى أصبح ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] [٣] .
- عن ابن مسعود ﷺ أنه ردّد قول الله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤][٤] .
- عن مسروق ، قال : قال لي رجل من أهل مكة : هذا مقام أخيك تميم الداري ، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح ، أو كاد أن يصبح يقرأ آية من كتاب الله ، يركع ويسجد ، ويبكي : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] [٥] .
- عن القاسم بن أبي أيوب أن سعيد بن جبير ردّد هذه الآية : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] بضعاً وعشرين مرة[٦] .
- عن هشام الدستوائي ، قال: " لما تُوفي عمرو بن عتبة بن فرقد دخل بعض أصحابه على أخته ، فقال : أخبرينا عنه . فقالت : قام ذات ليلة فاستفتح سورة حم ، فلما أتى على هذه الآية: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ﴾[غافر: ١٨] فما جاوزها حتى أصبح "[٧] .
- قال زيد بن الكميت : كان أبو حنيفة شديد الخوف من الله ، فقرأ بنا علي بن الحسين المؤذن ليلة في عشاء الآخرة " إذا زلزلت " وأبو حنيفة خلفه ، فظل قائماً إلى الصباح وهو يقول : " يا من يجزي مثقال

---

١) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (ص٨٣) .

٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (١٨٧) .

٣) قيام الليل للمروزي (ص١٤٨) ، والحديث في السنن مختصراً .

٤) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (ص٨٦) .

٥) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٨٣٣) ١٠/٤٠٠ ، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٢٥٠) ٢/٥٠ .

٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٥٣٥١) ٧/٢٠٣ .

٧) حلية الأولياء لأبي نعيم ٤/١٥٨ .

ذرة خير خيرا ، ويا من يجزي مثقال ذرة شر شرا، أجِر النعمان عبدك من النار ، وما يقرّب منها من السوء ، وأدخِله في سعة رحمتك "[(١)] .

ولأهمية تكرار الآيات في حصول التأثر بالقرآن فقد أوصى العلماء بالحرص عليه ، فقال ابن القيم – رحمه الله – : " فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ، فإذا قرأه بتفكّر حتى مرّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كرّرها ولو مائة مرة ولو ليلة ، فقراءة آية بتفكّر وتفهّم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان ، وذوْق حلاوة القرآن "[(٢)] .

سابعاً : مدارسة القرآن :

مدارسة القرآن صورة من صور الرغبة في تفهّم القرآن ، والوقوف على حروفه وحدوده ، واستنباط حِكمه ومعانيه ، فالمدارسة تعين على توقّد الذهن ، وحضور العقل ، وتكامل الفكر ، حتى يفيد المتدارسون للقرآن أكبر فائدة .

ومن أبلغ الدلائل على فضيلة مدارسة القرآن ما ثبت عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطّأ به عمله ، لم يُسرع به نسبه)[(٣)])[(٣)] .

وقد قدّم لنا نبينا ﷺ نموذجاً عملياً لمدارسة القرآن ، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : " كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة "[(٤)] .

وقد استقر هذا المبدأ عند سلفنا الصالح ، فعلى الرغم من أنهم كانوا أقرب الناس إلى القرآن معايشة ولغة وفهماً ، فإنهم كانوا حريصين على مدارسة القرآن .

وقد ورد عنهم ما يدل على أهميتها :

- قال ابن مسعود ﷺ : " الدراسة صلاة "[(٥)] .
- قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها "[(١)] .

---

١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٤٨٧/١٥ .

٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (١٨٧) .

٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب / الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب / فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم (٢٦٩٩) ٢٠٧٤/٤ .

٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب/ بدء الوحي برقم (٦) ٨/١ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب /الفضائل ، باب / كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة برقم (٢٣٠٨) ١٨٠٣/٤ .

٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١٠٤/١ .

وهذه نماذج عملية على تدارس السلف للقرآن :

- فعن ابن أبي مليكة ، أن عائشة ، زوج النبي ﷺ : كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه ، إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وأن النبي ﷺ قال: (من حُوسب عُذِّب " قالت عائشة : فقلت : أوليس يقول الله –تعالى- : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] قالت: فقال: (إنما ذلك العرض ، ولكن: من نُوقش الحساب يهلك)[٢] .
- عن عبيد بن عمير ، قال: قال عمر ﷺ يوماً لأصحاب النبي ﷺ : فيم ترون هذه الآية نزلت : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] ؟ قالوا: الله أعلم ، فغضب عمر فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم . فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين . قال عمر: يا ابن أخي قُل ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضُربت مثلا لعمل ، قال عمر: أي عمل؟ قلت: شيء ألقي في روعي فقلته ، فتركني وأقبل وهو يفسّرها صدقت يا ابن أخي ، عنى بها العمل ، ابن آدم أفقر ما يكون إلى جنته إذا كبرت سنه وكثر عياله ، وابن آدم أفقر ما يكون إلى عمله يوم القيامة ، صدقت يا ابن أخي [٣] .

ثامناً : حرصهم على الفهم والعمل :

بيّن لنا ربنا الهدف الأسمى من نزول القرآن ألا وهو تدبّره والعمل به فقال : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] .

وحرص نبينا ﷺ على بيان هذا الهدف لأمته ، فعندما سأله عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن ختم القرآن في أقل من ثلاثة أيام قال له: (لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث)[٤] .

" كان ﷺ دائم التحذير لصحابته – ولأمته من بعده – من أن يتحوّل القرآن من وسيلة عظيمة لإحياء القلب وبثِّ الروح فيه إلى قراءة حنجرية فقط طلبًا للأجر والثواب دون الانتفاع الحقيقي به "[٥] .

ووعي الصحابة توجيهات القرآن ونبيهم ﷺ حول فهم القرآن والعمل به ، فاستقر هذا منهجاً عندهم يتمثل فيما يلي :

١. التمهل وعدم الإسراع في حفظ القرآن :

---

١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١١٧/١ .

٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / العلم ، باب/ من سمع شيئاً فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه برقم (١٠٣) ٣٢/١ .

٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / تفسير القرآن ، باب/ قولِهِ : {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} برقم (٤٥٣٨) ٣١/٦ بنحوه ، وذكرها السيوطي في الدر المنثور ٤٧/٢.

٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٦٥٤٦) ١٠٤/١١ .

٥) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ، د / مجدي الهلالي (ص٧٣) .

وليس أدل على ذلك من قول أبي عبد الرحمن السُّلمى : حدّثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ ، أنهم كانوا " يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات ، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل ، قالوا : فعلمنا العلم والعمل "(١) .

وذكر الإمام مالك في الموطأ: أنه بلغه أن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها(٢) .

" إن حفظ سورة البقرة لا يستغرق عدة أسابيع أو شهور إن كان الأمر يقتصر على حفظ ألفاظها فقط ، أما إذا كان الأمر مرتبطا بتأثير القرآن على العقل ليعيد تشكيله ، وعلى القلب ليعبّده لله ﷻ ، فالأمر بلا شك سيختلف ، وسيحتاج إلى سنين كما فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله – رضي الله عنهما – " (٣)

٢. الوقوف عند المعاني :

والمقصود من ذلك : " أن يقف القارئ عند المعنى فلا يتجاوزه إلى غيره ، متأملاً له ، ومعتبراً به ، وهو المقصود من حُسن الاستماع والتلاوة ، ومن ترتيل القرآن والتغني به " (٤) .

وهذا المبدأ كان دأب السلف مع القرآن ، إمامهم في ذلك سيد المتدبرين ﷺ . وهذه نماذج من ذلك :

- عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : " صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة ، فقلت: يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت: يصلي بها في ركعة ، فمضى ، فقلت: يركع بها ، ثم افتتح النساء ، فقرأها ، ثم افتتح آل عمران ، فقرأها ، يقرأ مترسّلاً ، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبّح ، وإذا مرّ بسؤال سأل ، وإذا مرّ بتعوّذ تعوّذ ثم ركع "(٥) .
- عن ابن أبي مليكة قال : " سافرت مع ابن عباس ﷺ ، من مكة إلى المدينة ، وهم يسيرون إليها وينزلون بالليل ، فكان ابن عباس ﷺ ، يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفاً حرفاً ، ثم حكى قراءته، قال: ثم يبكي حتى تسمع له نشيجا "(٦) .
- يقول إسحاق بن إبراهيم الطبري عن الفضيل بن عياض : " كانت قراءته حزينة ، شهيّة، بطيئة ، مترسّلة ، كأنه يخاطب إنسانا ، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة ، يردّد فيها ، وسأل "(١) .

---

١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٣٤٨٢) ٣٨/٤٦٦ .

٢) أخرجه مالك في الموطأ برقم (٦٩٥) ٢/٢٨٧ .

٣) العودة إلى القرآن ، د / مجدي الهلالي (ص٨٤) .

٤) تدبر القرآن للسنيدي (ص١٢٤) .

٥) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب /صلاة المسافرين ، باب/ استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل برقم (٧٧٢) ١/٥٣٦ .

٦) مختصر قيام الليل للمروزي (ص١٣١) .

٣. حرصهم على تعليم غيرهم القرآن بطريقة تربط بين اللفظ والمعنى :

كان الصحابة يجتهدون في تعليم من بعدهم القرآن بطريقة تربط بين اللفظ والمعنى ، وتحقّق مفهوم التعليم ، وكانوا يقتصرون في الجلسة الواحدة على آية أو بضع آيات حتى يتم الانتفاع الصحيح بها(٢) .

قال أبو رجاء العطاردي : كان أبو موسى ﷺ يعلّمنا القرآن خمس آيات خمس آيات(٣) .

وقال أبو العالية : تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، إنه أحفظ لكم ، وإن جبريل صلوات الله عليه كان ينزل بخمس آيات متواليات(٤) .

٤. كثرة النصائح والوصايا بوجوب فهم القرآن والعمل به ، والتحذير من عدم العمل :

أوصى جُندب بن عبد الله ﷺ أهل البصرة بوصية فقال فيها: " وعليكم بالقرآن ، فإنه هُدى النهار ، ونور الليل المظلم ، فاعملوا به على ما كان من جَهد وفاقة "(٥) .

أما الحسن بن على فيوصى وصية مهمة وضابطة لقراءة القرآن فيقول : " اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرؤه "(٦) .

" لذلك لما بدأ المسلمون في عصر التابعين يُقبلون على حفظ القرآن بشكل مختلف عما كان يفعله الصحابة، ازداد تحذير الصحابة لهم وتخويفهم من خطورة حمْل ألفاظ القرآن دون إدراك معانيه ومعرفة أحكامه ، والعمل بما تدل عليه آياته " (٧) .

فقد جمع أبو موسى الأشعري ﷺ الذين حفظوا القرآن في الكوفة، وكان عددهم يبلغ قرابة الثلاثمائة ، فعظَّم القرآن ، وقال: " إن هذا القرآن كائن لكم ذُخرًا، وكائن عليكم وزرًا ، فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم ، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة ، ومن اتبعه القرآن زجَّ به في قفاه فقذفه في النار "(٨) .

وقد وعي التابعون توجيهات الصحابة بضرورة فهم القرآن والعمل به فأثّرت فيهم هذه التوجيهات فقد قال الحسن البصري : " إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، ولم يتأولوا الأمر من قِبل أوله ، وقال الله –سبحانه وتعالى-: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] ، وما تدبر آياته إلا

---

١) سير أعلام النبلاء ٤٢٧/٨ – ٤٢٨ .

٢) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ، د / مجدي الهلالي (ص٩٤) .

٣) معرفة القراء الكبار للذهبي (ص٣١) .

٤) فضائل القرآن للمستغفري ٣٢٠/١ .

٥) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص٧٧) .

٦) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص٧٨) .

٧) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ، د / مجدي الهلالي (ص٩٣) .

٨) فضائل القرآن للفريابي (ص١٢٨) .

اتباعه لعلمه ، والله يعلمه ، أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يُرى له القرآن في خُلق ، ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفَس ، والله ما هؤلاء بالقراء ، ولا العلماء ، ولا الحكماء ، ولا الورعة ، متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثّر الله في الناس مثل هؤلاء "[١] .

إن منهج سلفنا الصالح في فهم القرآن والعمل به يؤكّد أنهم : "لم يكونوا يقرءون القرآن بقصْد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصْد التذوق والمتاع . لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته . إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه " [٢] .

تاسعاً : عدم قصرهم معاني الآيات على أحوال خاصة :

ينبغي لمن أراد الانتفاع بالقرآن أن يجعل القرآن خطاباً موجّهاً إليه ، وأن " يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن ، فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور ، وإن سمع وعداً ووعيداً فكذلك"[٣]

وهكذا كان سلفنا الصالح يتلقون القرآن على أنه موجّه لهم في كل شيء ، فلا يقصرونه على أوضاع مضت ، أو أحوال خاصة قد انتهت .

يقول محمد بن كعب القرظي : " من بلغه القرآن فكأنما كلّمه الله "[٤] .

وهذا نموذج عملي يبيّن كيف تعامل الصحابة مع القرآن من خلال هذا المبدأ الذي ذكرناه :

فعن عبد الله بن عمر أن عمر ﷺ رأى في يد جابر بن عبد الله ﷺ درهما فقال : ما هذا الدرهم ؟ قال : أريد أن أشتري به لحما لأهلي ، قرموا إليه[٥] . فقال : أكلّما اشتهيتم شيئاً اشتريتموه ! أين تذهب عنكم هذه الآية : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠] [٦]

فعمر ﷺ لم يقصر معنى الآية على الكافرين ، وإنما رأى أنها صالحة لأن تكون في حق غيرهم ، وبهذا كان سلفنا الصالح يحسنون التعامل مع القرآن في أوامره ونواهيه .

---

١) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص٢٧٤) .

٢) معالم في الطريق ، سيد قطب (ص١٤) .

٣) إحياء علوم الدين للغزالي ٢٨٥/١ .

٤) إحياء علوم الدين للغزالي ٢٨٥/١ .

٥) قرموا إليه : اشتهوه . ينظر : اللسان (ق ر م) .

٦) أخرجه الحاكم ٤٥٥/٢ ، والبيهقي في " شعب الإيمان " (٥٦٧٢) .

وهذا يؤكد لنا " أن التدبر عند سلفنا لم يكن درساً يُسمع أو كتاباً يُتلى بقدر ما كان شعوراً ينبض في قلب القاريء وهو يتجه لقراءة القرآن ، وثمرة يقصدها حين تلاوة الآيات ، ومورداً ينهل منه القلب حين تدارسه " [١] .

المطلب الثالث

نماذج تدبرية في عهد السلف الصالح

ينبغي لمن أراد تدبر القرآن الكريم ، وفهْم معانيه ، ومعرفة أحكامه ، أن ينظر في سِير السلف الصالح وأن يعرف أحوالهم مع القرآن الكريم ؛ حتى يكون دافعاً قوياً له أن يتشبّه بهم ، فإن التشبّه بالصالحين فلاح .

- **تدبر الرسول ﷺ للقرآن الكريم :**

إذا كنا نتحدّث عن نماذج تدبرية في عهد السلف ، فلا يفوتنا أولاً أن نتحدّث عن نموذج من نماذج تدبر الرسول ﷺ للقرآن ، فهو سيد المتدبرين ، وبلغ الدرجة العليا ، والمقام الأسمى ، في تدبر القرآن الكريم .

عن عطاء قال : " دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة – رضي الله عنها – فقال ابن عمير : حدِّثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ . فبكت ، وقالت : قام ليلة من الليالي ، فقال : (يا عائشة ! ذريني أتعبد لربي) ، قالت : قلت : والله إني لأحب قُربك ، وأحب ما يسرّك ، قالت : فقام ، فتطهر ، ثم قام يصلي ، فلم يزل يبكي حتى بلَّ حِجْره ، ثم بكى ، فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض ، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله ! تبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ لقد نزلت عليَّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر ما فيها : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]) [٢] .

- **والله لا أنزعها منه !**

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقْره ، فلما قال مسطح ما قال في عائشة – رضي الله عنها – في حادثة الإفك ، قال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال في عائشة ، ما قال. فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:

---

١) تدبر القرآن للسنيدي (ص٨) .

٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٢٠) ٣٨٦/٢ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨) ١٤٧/١ .

٢٢] قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي . فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها أبدًا (١) .

- **أشكو بثي وحزني إلى الله :**

عن عبدالله بن شداد بن الهاد يقول : سمعت عمر يقرأ في صلاة الصبح سورة يوسف ، فسمعت نشيجه(٢) ، وإني لفي آخر الصفوف ، وهو يقرأ : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦] (٣) .

- **لذة القراءة والتدبر أشد من الشعور بالألم :**

كان عبّاد بن بشر يقوم بحراسة المسلمين بعد أن عسكروا في مكان ، وأخلدوا للنوم وهم في طريق عودتهم من غزوة ذات الرقاع، ولما وجد الجو هادئًا بدأ في الصلاة وقراءة القرآن، وفي أثناء ذلك لمحه أحد المشركين فأصابه بسهم فلم يتحرك من مكانه ، بل نزعه وأكمل صلاته ، ثم رماه بسهم ثانٍ فنزعه وأكمل صلاته، ثم رماه بثالث فنزعه وركع وسجد وسلَّم ، وأيقظ صاحبه عمار بن ياسر، فلما رأى ما به من الدماء قال له: لِمَ لا أنبهتني أول ما رمى ؟ قال له: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها ، فلما تابع عليَّ الرمي ركعتُ فآذنتك، وأيم الله لولا أن أُضيِّع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها(٤) .

لقد كان شعوره ﷺ بلذة القراءة ، أشد بكثير من شعوره بالألم!!

- **بيْرُحاء أحب أموالي إلي :**

كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيْرُحاء ، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، قال أنس : فلما أُنزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، إن الله –تبارك وتعالى– يقول: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

---

١) جزء من حديث الإفك عند البخاري في صحيحه ،كتاب / الشهادات ، باب / تعديل النساء بعضهن بعضا ، برقم (٢٦٦١) ١٧٣/٣ ، ومسلم في صحيحه ،كتاب / التوبة ، باب / في حديث الإفك وقبول توبة القاذف برقم (٢٧٧٠) ٢١٢٩/٤ .

٢) النشيج : تردد البكاء في الصدر من غير انتحاب . المعجم الوجيز (ص٦١٥) .

٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم (٢٧٠٣) ١١١/٢ من طريق علقمة بن أبي وقاص ، وذكره ابن الجوزي في مناقب عمر (ص١٥٩) .

٤) دلائل النبوة للبيهقي ٣٧٩/٣ وعنده : أن السورة التي كان يقرؤها هي سورة الكهف ، السيرة النبوية لابن هشام ٢٠٨/٢ .

وإن أحب أموالي إلي بيْرُحاء ، وإنها صدقة لله ، أرجو بِرّها وذُخرها عند الله ، فضعْها يا رسول الله حيث أراك الله ، قال: فقال رسول الله ﷺ: (بخٍ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلتَ ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين) فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[١] .

- **من غرائب الطاعة وسرعة الانقياد !!**

عن أبي بريدة ، عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ، ، ونحن نشرب الخمر حِلّا إذ قمتُ حتى آتي رسول الله ﷺ فأُسلم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ ﴾ [المائدة: ٩٠] إلى آخر الآيتين :﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] ؟ فجئت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ ؟ قال: وبعض القوم شرْبته في يده ، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا ، كما يفعل الحجّام ، ثم صبوا ما في باطيتهم[٢] فقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا [٣] .

- **فمنّ الله علينا :**

عن عبّاد بن حمزة قال: دخلت على أسماء وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧] قال: فوقفتْ عليها ، فجعلت تستعيذ وتدعو . قال عبّاد: فذهبتُ إلى السوق ، فقضيتُ حاجتي ، ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو[٤] .

- **وحيل بينهم وبين ما يشتهون :**

عن سمير الرياحي عن أبيه قال : شرب عبد الله بن عمر رضي الله عنه ماء مُبرّدا فبكي فاشتد بكاؤه ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : ذكرتُ آية في كتاب الله ﷻ : ﴿ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ ﴾[سبأ: ٥٤] فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئا شهوتهم الماء ، وقد قال الله ﷻ: ﴿ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٠] [٥] .

- **وإن منكم إلا واردها :**

---

١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / الزكاة ، باب / الزكاة على الأقارب ، برقم (١٤٦١) ٢/١١٩ .

٢) الباطية : إناء من الزجاج عظيم ، تُملأ من الشراب ، وتوضع بين الشَّرْب يغرفون منها ويشربون . اللسان (ب ط ى) .

٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/٦٦١-٦٦٢ .

٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٦٠٣٧) ٢/٢٥ .

٥) صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٢٢٠ .

عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة ﷺ واضعاً رأسه في حِجر امرأته ، فبكى ، فبكتِ امرأته فقال : ما يبكيك ؟ فقالت : رأيتك تبكي فبكيتُ . قال: إني ذكرت قول الله ﷻ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] ، فلا أدري أنجو منها أم لا[١] ؟

- **منعني القعودَ ذِكرُ جهنم !**

عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، قال : سمعت عبد الله بن حنظلة يوماً ، وهو على فراشه، وعُدتُه من عِلته، فتلا رجل عنده هذه الآية: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١] فبكى ، حتى ظننت أن نفسَه ستخرج ، وقال: صاروا بين أطباق النار، ثم قام على رجليه ، فقال قائل : يا أبا عبد الرحمن اقعد ، قال: منعني القعودَ ذكرُ جهنم، ولا أدري لعلي أحدهم[٢] .

- **ونبلوا أخباركم !**

قال إبراهيم بن الأشعث : سمعت فضيلاً ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي ويردد هذه الآية : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] وجعل يقول: ونبلوا أخباركم ! ويردّد ويقول: وتبلو أخبارنا ، إن بلوتَ أخبارنا فضحتنا ، وهتكتَ أستارنا ، إن بلوتَ أخبارنا أهلكتَنا وعذّبتنا[٣] .

هذه الآثار وغيرها الكثير تبيّن لنا أن سلفنا " ذاقوا حلاوة الإيمان من خلال القرآن ، وأدركوا قيمته وقدرته الفذّة على التغيير وبثّ الروح ، فأقبلوا عليه ، وانشغلوا به ، وأعطَوه الكثير من أوقاتهم ، وانجذبت مشاعرهم نحوه عند لقائهم به لدرجة الاستغراق والهيمنة "[٤] .

---

١) تفسير ابن كثير ٥/٢٥٢ .

٢) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي (ص٣١-٣٢) .

٣) التوابين لابن قدامة (ص١٢٧) .

٤) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ، د / مجدي الهلالي (ص٨١) .

المبحث الثاني

أثر تدبر القرآن في النهوض الحضاري بمجتمع السلف

أنزل الله – سبحانه — القرآنَ ، والعربُ – بل والعالم كله – في أشد الحاجة إليه ، فأتاهم بالعقيدة الحقَّة بعد أن كانوا منها في أمر مريج ، وبالشريعةِ الصحيحة بعدما تفرَّقتْ بهم الطرق ، وتقطَّعت بينهم الأسباب ، وأتاهم بالنظم الصالحة لبناء أمة قادرة على أن تُسهم في بعث العالم ونهضته ووحدته والأخلاقِ الفاضلة بعد أن سادتْ في المجتمع الجاهلي – بل في المجتمع الإنساني وقتئذ بصفة عامة – الرذائلُ والمنكرات: من ضلال في العقيدة ، وفوضى في التشريع ، وفسادٍ في الأخلاق ، فأحدث في العالم تحوُّلاً وتجديدًا لم يشهد لهما التاريخ مثيلاً من قبل ، تحوّلاً في التفكير ، تحولاً في الأخلاق ، وتجديدًا في الحضارة والمدنية ، تحولاً إصلاحيًّا شاملاً لكل مرافق الحياة الإنسانية ، في كل بقعة من بقاع الأرض التي استظلَّتْ بظل الإسلام ، كما قدّم للإنسانية نموذجًا رائعًا للإنسان المتكامل في عقيدته وسلوكه وأخلاقه ، فأقبل عليه الناسُ من جميع البقاع ، ومن كل الأجناس ، وربط القرآن بينهم برباط العقيدة ، وألَّف بين قلوبهم حتى أصبحوا بنعمة الله إخوانًا متحابِّين ، وكانوا بذلك خيرَ أمة أُخرجتْ للناس ، قادَتِ العالمَ وعلَّمت البشريةَ قرونًا طويلة[1] .

كل هذا بسبب حُسن تعاملهم مع القرآن ، وفهْمهم له ، وتطبيقهم لقواعده ، فأحدث فيهم هذه النقلة النوعية ، فمن أعراب غلاظ جفاة إلى فاتحين عظام ، وعظماء معلّمين الخير للبشرية!

والحق أقول : إن الإنسان يقف حائراً أمام النهضة الشاملة التي أحدثها القرآن في الأجيال الأولى من الأمة الإسلامية في كافة المجالات ، يقف حائراً أيها يختار للحديث عنها ، وأيها يدع .

لكن سأحاول التركيز على بيان أثر تدبر القرآن في النهوض الحضاري بمجتمع السلف من خلال ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : أثر تدبّر القرآن في النهوض الحضاري الاجتماعي .

المطلب الثاني : أثر تدبّر القرآن في النهوض الحضاري الأخلاقي .

المطلب الثالث : أثر تدبّر القرآن في النهوض الحضاري العلمي .

وفي هذه المطالب أحاول — جاهداً — الوقوف على أهم المعالم المبيّنة لأثر التدبر في النهوض الحضاري بمجتمع السلف ، وإلا فإن الموضوع يحتاج إلى تفصيل أوسع من هذا .

---

١) مقتبس من مقال بعنوان من الآثار الإيمانية لتعليم وتعلم القرآن الكريم على الفرد والمجتمع ، د / شعبان محمود .

المطلب الأول

أثر تدبر القرآن في النهوض الحضاري الاجتماعي

أتناول في هذا المطلب بيان أثر تدبر القرآن في النهوض الحضاري بمجتمع السلف على الفرد ، والأسرة ، والمجتمع .

أولاً : الفرد :

يتجلى أثر تدبر القرآن على الفرد المسلم في مجتمع السلف من خلال ما يلي :

- **زيادة الإيمان :**

تدبر القرآن من أهم وسائل زيادة الإيمان ، وذلك من خلال مواعظه البليغة التي تستثير المشاعر وتؤجّجها ، فيحدث بذلك التجاوب بين الفكر والعاطفة .

فالقرآن منبع عظيم من منابع الإيمان يفيض على كل من يرده .

قال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] هو القرآن، ليس كلهم رأى النبي ﷺ [(١)] .

ومن السمات التي سجّلها القرآن الكريم للمؤمنين عموماً والصحابة خصوصاً أن إيمانهم يزيد ولا ينقص ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا ﴾[الأنفال: ٢] .

ووجه زيادة إيمانهم عند سماع القرآن : " أنهم ألْقوا السمع للقرآن ، وأحضروا قلوبهم لتدبّره فعند ذلك ازداد إيمانهم ويقينهم . فالتدبر يُحدث في قلوبهم رغبة في الخير ، واشتياقا إلى كرامة الله لهم ، ووجَلا من العقوبات ، وازدجارا عن المعاصي ، وكل هذا مما يزداد به الإيمان "[(٢)] .

من هنا ندرك أن سبب وصول الجيل الأول لهذا المستوى الإيماني غير المسبوق هو تدبر القرآن وتنفيذ أحكامه ، هذا الإيمان كان في قلوبهم أمثال الجبال كما قال ابن عمر – رضي الله عنهما – [(٣)] .

- **إيجاد الشخصية الإسلامية المتوازنة :**

من يترك نفسه للقرآن ، سيجد بلا شك أن شخصيته قد تشكّلت بصورة متوازنة ، بدون إفراط أو تفريط ، ويعطي كل ذي حق حقه ، " فالفهم الصحيح للقرآن هو الذي يبعث صاحبه على استثمار الدنيا والآخرة معاً ، فلا يضيّع العاقل الدنيا بدعوى طلب الآخرة ، ولا الآخرة لانشغاله بالدنيا ، بل

---

١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص٥٨) .

٢) ينظر : تفسير السعدي (ص٣١٥) بتصرف .

٣) جامع العلوم والحكم (ص١١٤) .

يكون من خيار الأمة الذي يجمعون بين سعادتي الدنيا والآخرة ، ويحقّقون الموازنة بين عملي الدنيا والآخرة " [١] .

وسلفنا الصالح – خاصة جيل الصحابة – هم أكثر الأجيال تحقيقاً للشخصية الإسلامية المتوازنة ، فقد كانوا يضحكون ، ويلعبون ، ويمارسون حياتهم بصورة متوازنة .

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : " لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين ، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أُريد أحد منهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون "[٢] .

- **صقْل المواهب وتنمية القدرات العقلية :**

إن من يعيش مع القرآن ويتدبره يؤثّر القرآن فيه من كل النواحي ، ومن ذلك : أن تنمو فيه قوة الملاحظة ، وملكة التفكير ، وترتفع قدرته على معالجة الأمور ، ويصبح حكَماً عاقلاً عند اختلاف الآراء والأفكار كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الزمر: ٩][٣] . ولعل مما يشهد لهذا الأمر من حياة الصحابة ، ما ورد عن مسروق قال: " ما نسأل أصحاب النبي ﷺ عن شيء إلا وعلمه في القرآن ، ولكن قصر علمنا عنه "[٤] ، ويؤيده قول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله –تعالى– "[٥] .

فهذا يدل على أن تدبر القرآن صقل مواهبهم ، ونمّى قدراتهم العقلية .

ثانياً : الأسرة :

إن القرآن دعا إلى الاهتمام بالأهل والأسرة ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] ، وقد حثّ الرسول ﷺ على أن يكون للبيوت حظٌّ من العبادة حتى يتعلّم أهل البيت حب الطاعة ، فقال النبي ﷺ : (إن البيت الذي يُقرأ فيه يكثر خيره ، والبيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن يقلّ خيره)[٦] .

وقد فقه الصحابة هذه الوصية النبوية ، فكان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدُّجى يسمع فيها دويّاً كدويّ النحل بالقرآن[٧] .

---

١) أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم ، د / عبد القدوس السامرائي (ص٥١) .

٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٢٥٨) .

٣) دعوة إلى تدبر القرآن الكريم ، مختار شاكر كمال (ص١٩٧) .

٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٠٨٧) ٥٤٢/٣ .

٥) تفسير الآلوسي ٣٥٧/٣ .

٦) أخرجه البزار في مسنده برقم (٦٦٧٢) ٢٠٥/١٣ .

٧) المنهج النبوي في التعليم القرآني ، د / عبد السلام المجيدي (ص١٣٩) ، (ص٣٣٨) .

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال : النبي ﷺ : (إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار)[١] .

قال وكيع : " كان الحسن وعلي ابنا صالح وأمهما جزؤوا الليل ثلاثة أجزاء ، يختمون فيه القرآن في بيتهم كل ليلة ، فكان كلّ واحد يقوم بثلثه ، فماتت أمهما ، فكانا يختمانه ، ثم مات علي فكان الحسن يختم كل ليلة "[٢] .

فسلفنا الصالح كانوا أسعد الناس من الناحية الأسرية ، وكثر الخير في بيوتهم ، وقلّت المشاكل الأسرية بينهم بسبب امتثالهم لأوامر القرآن في علاقة الزوج بزوجته وأبنائه ، وعلاقة الزوجة بزوجها وأبنائها .

وأبلغ دليل على ذلك قول شريح للشعبي يوماً – وقد سأله عن أهله - : " من عشرين عاماً لم أر ما يُغضبني من أهلي ، ولم أعقّب عليها في شيء إلا مرة ، وكنت لها ظالماً "[٣] .

وقال الإمام أحمد : " أقامت أم صالح معي عشرين سنة فما اختلفت أنا وهي في كلمة "[٤] .

ثالثاً : إيجاد المجتمع القرآني :

عندما يتربى المجتمع على نصوص القرآن ، ويهتدي بأنواره ، يكون مجتمعاً حياً حياة عزيزة كريمة ، وقد فهم سلفنا الصالح نصوص القرآن الداعية إلى الاعتصام وعدم التفرق ، فحرصوا على تنفيذ هذه النصوص في واقعهم ، فتكوّن منهم المجتمع القرآني الذي تربى على منهج القرآن وأسسه ومبادئه وتوجيهاته ، فأرسى فيهم القرآن روح التراحم والتواد ، ونشْر العدل والإنصاف والمساواة ، فكان مجتمع السلف – بحق – كما وصفهم القرآن : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وقد ذكر لنا القرآن كيف كانت أخوّة المجتمع المسلم في عهد الصحابة – كنموذج عملي منهم لتدبر القرآن وتطبيق أحكامه – في صورة مشرقة لم يسبق لها مثيل ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ ﴾ [الحشر: ٩] فقد " التقى أهل مكة بأهل المدينة ، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد ، فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ ، وكان الأوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث ، ولا تزال سيوفهم تقطر دماً ، فألّف الإسلام بين قلوبهم ، ولو أنفق أحد ما في الأرض جميعاً ما ألّف بين قلوبهم ، ثم آخى

---

١) سبق تخريجه .

٢) صلاح الأمة في علو الهمة ، د / سيد حسين العفاني ٣/٥٥ .

٣) تنظر القصة في عودة الحجاب ، د / محمد إسماعيل المقدم ٢/٤٧٨-٤٧٩ .

٤) طبقات الحنابلة لأبي يعلى ١/٤٢٩ .

رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين ، فكانت أخوة تزري بأخوة الأشقاء ، وتبذّ كل ما رُوي في التاريخ من خلّة الأخلاء " [١] .

وقد ورد إلينا في آثار الصحابة ما يشرح هذا النص القرآني عملياً من جيل الصحابة الفريد ، فلما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع ، فقال لعبد الرحمن : " إني أكثر الأنصار مالا ، فأقسم مالي نصفين ، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي أطلِّقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوّجْها "[٢] .

وبسبب تحقيق هذا المجتمع القرآني الإيمان ، وتحاكمهم إلى شريعة الرحمن أتتهم ثمرة ذلك كله ألا وهو الاستقرار والأمن التام في أموالهم وأعراضهم ودمائهم ، والنصر والفتح ، والاستخلاف والتمكين ، والعزّ والشرف ، حتى بلغ ملكهم – في فترة وجيزة في أعمار البشر – من المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وأصبحوا خير أمة أُخرجت للناس.

---

١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي (ص٧٣) بتصرف .

٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب / المناقب ، باب / إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين، والأنصار برقم (٣٧٨٠) ٥/٣١ .

المطلب الثاني

أثر تدبر القرآن في النهوض الحضاري الأخلاقي

عُني القرآن عناية عناية مميّزة بموضوع الأخلاق والسلوك ، فهناك حشْد كبير من الآيات المتحدّثة عن الأخلاق بطريقة مباشرة كما في سورة الإسراء ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان ، والعنكبوت ، والحجرات والمعارج وغيرها ، أو بطريقة غير مباشرة كما هي أخلاق الأنبياء والصالحين بما قصّه الله علينا من قصصهم مع أقوامهم .

وإن خير مَن عمل بكتاب الله وتخلّق بأخلاقه ، وطبّقه في ظاهره وباطنه ، وأصبح خُلقاً له نبينا محمد ﷺ ، الذي أثنى الله على خُلقه ، ونعته بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] ، ولما سُئلت عائشة – رضي الله عنها – عن خُلق النبي ﷺ قالت : " كان خُلقه القرآن "[(١)] .

وقد كان سلفنا الصالح نموذجاً مشرِّفاً للتخلق بأخلاق القرآن ، فاصطبغوا بأخلاقه ، وتحوّلوا إلى أمة تعرف الشورى وتكره الاستبداد ، إلى أمة يسودها العدل الاجتماعي ، ولا يُعرف فيها نظام الطبقات إلى أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع على الشعوب ، أمة تعرف العدل والإنصاف والمساواة ، وتطبّق ذلك على نفسها قبل أن تطبّقه على غيرها ، ثم بعد تخلّقهم بأخلاق القرآن تواصوا فيما بينهم على ذلك ، فوردتنا منهم نصائح تصف أخلاق أهل القرآن ، فقد ورد عن ابن مسعود ﷺ أنه قال : " ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مُفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخطئون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً ، محزوناً ، حليماً ، حكيماً ، سكّيتًا "[(٢)] .

وهذه نماذج عملية توضّح أثر التدبر في النهوض الحضاري للأخلاق عند سلفنا الصالح :

- لما أرد عيينة بن حصن الدخول على عمر ﷺ استأذن له الحر بن قيس ، فلما دخل عيينة قال: هي يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزْل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به ، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين ، إن الله – تعالى – قال لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافاً عند كتاب الله[(٣)] .
- بعد فتح سمرقند اشتكى أهلها إلى سُلَيْمَان بن أبي السري : إن قتيبة غدر بنا ، وظلمنا وأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، فائذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أُعطيناه ، فأذن لهم ، فكتب لهم عمر إلى سُلَيْمَان ابن أبي السري: أن يُجلس لهم القاضي ،

---

١) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٤٦٠١) ١٤٨/٤١ .

٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٣٣) .

٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (٤٦٤٢) ٦٠/٦ .

لينظر في أمرهم فأجلس لهم سُلَيْمَان جميع بن حاضر القاضي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عُنوة ، فقال أهل سمرقند : بل نرضى بما كان ، ولا نجدّد حرباً ، وتراضوا بذلك[1] .

أي رُقي هذا ! أن يقضي قاضي المسلمين على فاتحٍ مسلم مثله ومَن معه بهذا الحكم ، إنها أخلاق القرآن ! لقد تأثر المسلمون الأوائل بالتوجيهات الإلهية والإرشادات النبوية في الأخلاق ، وانفعلوا بها أصدق الانفعال ، فحفل تاريخهم بمواقف مشرّفة يُضرب بها المثل في إعلاء قِيم العدل والإنصاف والمساواة .

ويكفيك مثالاً على بيان أن المجتمعات الأولى من الأمة الإسلامية كانت على هذا السمْت ، ولم تكن هذه الأخلاق نوادر في أفراد منهم ، يكفيك ما ورد عن عمر ﷺ حين عيّنه أبو بكر الصدّيق ﷺ قاضياً على المدينة ، فمكث عمر بن الخطاب ﷺ سنة كاملة لم يختصم إليه اثنان ، لم يعقد جلسة قضاء واحدة ، وعندها طلب من أبي بكر الصديق إعفاءه من القضاء ، فقال أبو بكر لعمر : أمن مشقّة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر ؟ قال عمر: لا يا خليفة رسول الله ، ولكن لا حاجة لي عند قوم مؤمنين عرف كل منهم ما له من حق فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب فلم يقصّر في أدائه أحبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، إذا غاب أحدهم تفقّدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه ، وإذا أصيب عزّوه وواسوه ، دينهم النصيحة ، وخلّتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففيم يختصمون [2] ؟

المطلب الثالث

أثر تدبر القرآن في النهوض الحضاري العلمي

إن من يمتّع نظره في رياض القرآن وآياته لتزداد دهشته ، حين يرى كيف آخى القرآن بين الدين والعقل وألّف بينهما ، وكيف جعل من عقيدة الإسلام مزيجاً من التدين الحي ، والارتقاء في سُلّمِ الحضارة والتقدم ، لا بل إن الأدهشَ من ذلك في وحي القرآن ، والأغربَ بالنسبة لبقية الأديان ما يراه المتدبر لآياته ، كيف أن القرآن قد جعل من التفكير في الكون ، والتتبّع لمعرفة قوانين الحياة الطبيعية ، وتسخير قواها للإنسان ، كيف جعل من ذلك عبادة من أَجَلِّ العبادات الإسلامية ، وهذه ميزة للإسلام ، لم يسبقه إليها دين من الأديان .

---

١) تاريخ الطبري ٦/٥٦٧-٥٦٨ بتصرف .

٢) نظرات في التربية الإيمانية ، د / مجدي الهلالي (ص٥٠) .

إن الناظر في دلالات النصوص القرآنية ، وإرشادات النبي ﷺ في أحاديثه ، تتضح له أهمية العلوم الكسبية – مقرونة بعلوم الوحي – كمؤهّل أساس للاستخلاف في الأرض وعمارتها ، فقد رفع القرآن الكريم المسلمين إلى مستوى من الفهم والإدراك لسنن الله في الكون ، حتى أضحوا يفقهون آيات الله المرئية من كتابه المنظور ، كما فقهوا آياته المتلوة من كتابه المسطور ، فاجتمعت لهم بذلك قراءتان : قراءة الكون ، وقراءة الوحي في تناغم وتكاملٍ بما لم تعرفه أمة من الأمم[١] .

وكان سلفنا الصالح أكثر الأجيال فهماً ووعياً لقضية الاستخلاف في الأرض وعمارتها – من خلال تدبّرهم لآيات القرآن الدالة على ذلك – ، وأهمية التقدم العلمي كمؤهّل أساس لحمل أمانة الخلافة في الأرض ، فلم يجدوا حرجاً من اقتباس العلوم الكونية من الطب ، والكيمياء ، والفلك ، والبصريات ، والرياضيات وغيرها ، من أمم الحضارات القديمة مثل اليونان والفرس والروم ، وتطوير هذه العلوم بإسهامات بارزة ، وكانت تلك الإسهامات على نحو غير مسبوق شمولاً وتميّزاً ، وتصحيحاً للمسار ، حتى ليخيّل للمطلع على هذه الإسهامات الخالدة كأن لم يكن علو حياتية أو معارف حضارية .

" ويشهد لذلك الانطلاقة الكبرى ، والازدهار الهائل اللذان عرفهما العالم الإسلامي – على مدار عصور حضارتهم الزاهرة – في مجالات العلوم المختلفة ، حتى أضحت حواضر المسلمين في بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها قِبلة لطلاب العلم من أقاصي الدنيا ومختلف الملل "[٢] .

ويشهد لذلك أيضاً : أن كتب العلوم والمعارف ؛ من طب ، وكيمياء ، وزراعة ، وفلك ، وغيرها ، كانت مكتوبة بلغة القرآن ، وبفكر أبناء القرآن ، وكيف كانت تُدرّس في جامعات أوروبا قرابة ستة قرون .

نموذج من نماذج النهوض الحضاري العلمي عند سلفنا :

أكتفي بذكر نموذج للتقدم العلمي الهائل لأمتنا الإسلامية في عصور حضارتها الزاهرة ، وهو مجال الطب " فلم يقتصر الإبداع على علاج الأمراض فحسب ، بل تعدّاه إلى تأسيس منهج تجريبي أصيل انعكست آثاره الراقية والرائعة على جميع جوانب الممارسة الطبية وقاية وعلاجاً ، أو مرافق وأدوات ، أو أبعاداً إنسانية وأخلاقية تحكم الأداء الطبي .

وتتجلى روعة الإسهامات الإسلامية في الطب في تخريج هذا الحشْد من العبقريات الطبية النادرة ، التي كان لها – بعد الله – الفضل الكبير في تحويل مسار الطب اتجاهاً آخر ، تابعت المسير على نهجه أجيال الأطباء إلى يوم الناس هذا .

وقد تميّز علماء الطب المسلمون بأنهم أول من عرف التخصص ، فكان منهم : أطباء العيون ، ويُسمّون " الكحّالين " ، ومنهم الجرّاحون " الحجّامون " ، ومنهم المختصون في أمراض النساء .

---

١) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة ، د / حسين شرفة (ص٥٥٢) .

٢) مقتبس من " سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة " ، د / حسين شرفة (ص٥٥٢) .

كما عرف المسلمون إنشاء المستشفيات النظامية ، وبرزت الشخصيات الإسلامية في ميدان علم الطب .

كما أجاد المسلمون الأوائل في كل فرعٍ من فروع الطب ، وصحّحوا ما كان من أخطاء العلماء السابقين تجاه نظرياتٍ بعينها ، ولم يقفوا عند حدّ النقل والترجمة فقط ، وإنما واصلوا البحث وصوّبوا أخطاء السابقين " (١) .

شهادة في حق الحضارة العلمية الإسلامية :

تقول المستشرقة الألمانية " زيغريد هونكه " : " إن هذه الطفرة العلمية الجبّارة التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم ، من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري . فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التي لا نظير لها ، والتي يحار الإنسان في تعليلها وتكييفها .
إذ كيف من المستطاع أن شعباً لم يسبق له أن يلعب دوراً سياسياً أو ثقافياً من قبل ، يظهر بغتة إلى الوجود ، ويُسمع العالم صوته ، ويملي عليه إرادته ، ويفرض عليه تعاليمه ، وفي زمن قصير أصبح ندّاً لليونان ، إن هذه المنزلة التي بلغها أبناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالاً " (٢) .
وأخيراً : فسرّ نهضة سلفنا الصالح كانت في تدبرهم لكتاب ربهم ، وحُسن تعاملهم معه ، وفهْمهم له وتطبيقهم لقواعده .

الخاتمة والتوصيات

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :
ففي نهاية هذه الدراسة التي يسّر الله – تعالى – إعدادها حول " تدبر القرآن ودوره في النهوض الحضاري بمجتمع السلف " ، يمكن أن نخلص إلى عدة نتائج وتوصيات :
أولاً : النتائج :

١. اتبع سلفنا الصالح منهجاً قويماً في تدبر القرآن ، يقوم هذا المنهج على ركن نظري ، بالوقوف مع الآيات والتأمل فيها ، وركن عملي يقوم على التفاعل مع الآيات ، وقصْد الانتفاع والامتثال .
٢. يغلب على منهج السلف في تدبر القرآن الجانب العملي ، وقد ظهر ذلك واضحاً جلياً من النماذج التدبرية الواردة في البحث .

---

١) العلم وبناء الأمم ، د / راغب السرجاني (ص١٠٠-١٠١) .
٢) نقلاً عن " سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة " ، د / حسين شرفة (ص٥٥٢) .

٣. أحسن السلف التعامل مع القرآن تلاوة وفهماً وتدبراً وتطبيقاً ، فكافأهم الله بالنهوض الحضاري على كافة المستويات ، وفي جميع المجالات .

ثانياً : التوصيات :

١. توجيه النظر إلى تتبّع الآثار الواردة عن القرآن في كلام السلف ، ومحاولة استيعابها لاستخراج المنهج الذي تعامل به السلف مع القرآن تلاوة وفهماً وتدبراً وتطبيقاً ، ومحاولة تطبيقه في مجتمعات المسلمين ، فلن نصل إلى النهوض الحضاري إلا بما وصلوا به .

٢. إن أعظم ما يجب على أهل العلم بالقرآن والمهتمين به والمؤسسات القرآنية في هذا الوقت هو العودة بالأمة إلى تدبر القرآن ، وذلك بتوجيههم لأبناء الأمة وأجيالها لتلقي القرآن بقصد الانتفاع والامتثال والعمل مع قصد التلاوة والحفظ .

هذا ما يسّر الله – تعالى – كتابته ، ونسأل الله – تعالى – أن يرزق أمتنا عودة صادقة إلى كتاب ربها ، وتقويم سبيلها به على وِفق منهج سلفها الصالح . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس المراجع والمصادر

- أثر القرآن في سلوك المجتمع المسلم ، د / عبد القدوس السامرائي ، ط / دائرة الشئون الإسلامية والعمل الخيري بدبي – الإمارات .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ، لابن حبان ، ط / مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٨هـ .
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ، ط / دار المعرفة – بيروت .
- البحر الزخار المعروف بمسند البزار لأبي بكر البزار ، ط / مكتبة العلوم والحكم – السعودية
- البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن كثير ، ط / دار هجر ، ط / الأولى ١٤١٨هـ .
- تاريخ الرسل والملوك للإمام محمد بن جرير الطبري ، ط / دار التراث – بيروت ، ط / الثانية ١٣٨٧هـ .

- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ط / دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ط / الأولى ١٤٢٢هـ .
- التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ، ط / دار ابن حزم – بيروت ، ط /الثالثة ١٤١٤هـ
- تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ، د / مجدي الهلالي ، ط / مؤسسة اقرأ – القاهرة ، ط / الأولى ١٤٢٩هـ .
- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي ، ط / مكتبة المؤيد – السعودية ، ط / الثانية ١٤٠٨هـ .
- تدبر القرآن للشيخ / سلمان بن عمر السنيدي ، ط / مجلة البيان ، ط / الثانية ١٤٢٣هـ .
- التعريفات ، علي بن محمد الجرجاني ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٣هـ
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ط / مكتبة طيبة – السعودية ، ط الثانية ١٤٢٠هـ .
- تفسير مجاهد ، ط / دار الفكر الإسلامي الحديثة – القاهرة ، ط / الأولى ١٤١٠هـ .
- تلبيس إبليس لأب الفرج ابن الجوزي ، ط / دار الفكر – بيروت ، ط / الأولى ١٤٢١هـ
- التوابين لابن قدامة المقدسي ، ط / دار ابن حزم – بيروت ، ط / الأولى ١٤٢٤هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ، ط / مؤسسة الرسالة ، ط / الأولى ١٤٢٠هـ .
- جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر ابن عبد البر ، ط / دار ابن الجوزي – السعودية ، ط / الأولى ١٤١٤هـ .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ، ط / دار هجر ، ط / الأولى ١٤٢٢هـ .
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي ، ط / مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط / السابعة ١٤٢٢هـ .
- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه " صحيح البخاري " لمحمد بن إسماعيل البخاري ، ط / دار طوق النجاة ، ط / الأولى ١٤٢٢ هـ .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ، ط /دار الكتب العلمية – بيروت .
- رهبان الليل ، د / سيد حسين العفاني ، ط / مكتبة العفاني – القاهرة .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت ، ط / الأولى ١٤١٥هـ .

- دعوة إلى تدبر القرآن الكريم ، مختار شاكر كمال ، ط / دار البشير – عمان ، ط / الأولى ١٤١٥هـ .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٥هـ .
- الزهد والرقائق لعبدالله بن المبارك ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، ناصر الدين الألباني ، ط / مكتبة المعارف – السعودية ، ط / الأولى ١٤١٥هـ .
- سنن ابن ماجة ، ط / دار إحياء الكتب العربية – القاهرة .
- سنن أبي داود ، ط / المكتبة العصرية – بيروت .
- سنن الترمذي ، ط / مطبعة البابي الحلبي – القاهرة ، ط / الثانية ١٣٩٥هـ .
- السنن الصغرى للنسائي ، ط / مكتب المطبوعات الإسلامية – سوريا ، ط / الثانية ١٤٠٦هـ .
- سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة ، د / حسين شرفة ، ط / مؤسسة الرسالة – بيروت ط / الأولى ١٤٢٩هـ .
- سير أعلام النبلاء للذهبي ، ط / مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط / الثالثة ١٤٠٥ هـ .
- السيرة النبوية لابن هشام ، ط / مطبعة البابي الحلبي – القاهرة ، ط / الثانية ١٣٧٥هـ .
- شعب الإيمان للبيهقي ، ط / مكتبة الرشد – السعودية .
- صفة الصفوة لابن الجوزي ، ط / دار الحديث – القاهرة ، ط / الأولى ١٤٢١هـ .
- صلاح الأمة في علو الهمة ، د / سيد حسين العفاني ، ط / مكتبة العفاني – القاهرة .
- طبقات الحنابلة لأبي يعلى الحنبلي ، ط / دار المعرفة – بيروت .
- العلم وبناء الأمم ، دراسة تأصيلية لدور العلم في بناء الدولة ، د / راغب السرجاني ، ط / مؤسسة اقرأ – القاهرة ، ط / الأولى ١٤٢٨هـ .
- العودة إلى القرآن لماذا وكيف ، د / مجدي الهلالي ، ط / مؤسسة اقرأ – القاهرة ، ط / الأولى ١٤٢٩هـ .
- عودة الحجاب ، د / محمد إسماعيل المقدم ، ط / دار طيبة – السعودية ، ط / العاشرة ١٤٢٧هـ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، ط / دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩هـ .
- فضائل القرآن لأبي بكر الفريابي ، ط / مكتبة الرشد – السعودية ، ط / الأولى ١٤٠٩ هـ

- فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ، ط / دار ابن كثير – بيروت ، ط / الأولى ١٤١٥هـ .
- فضائل القرآن لأبي العباس المستغفري ، ط / دار ابن حزم – بيروت ، ط / الأولى ٢٠٠٨م
- قيام الليل للمروزي ، محمد بن نصر المروزي .
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة ، ط / مكتبة الرشد – بيروت ، ط / الأولى ١٤٠٩ هـ .
- لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور ، ط / دار صادر – بيروت ، ط / الثالثة ١٤١٤هـ
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للشيخ / أبي الحسن الندوي ، ط / مكتبة الإيمان – القاهرة .
- مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ، ط / المكتبة العصرية – بيروت ، ط / الخامسة ١٤٢٠هـ
- مختصر قيام الليل ، محمد بن نصر المروزي ، اختصره المقريزي ، ط / حديث أكاديمي، فيصل آباد – باكستان ، ط / الأولى ١٤٠٨هـ .
- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت ، ط / الأولى ١٤١١هـ .
- مسند الإمام أحمد ، ط / مؤسسة الرسالة ، ط / الأولى ١٤٢١هـ ز
- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " صحيح مسلم " مسلم بن الحجاج ، ط / دار إحياء التراث العربي – بيروت .
- المصنف ، عبد الرزاق الصنعاني ، ط / المكتب الإسلامي – بيروت ، ط / الثانية ١٤٠٣ هـ .
- معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ، ط / دار طيبة – السعودية ، ط / الرابعة ١٤١٧هـ
- معالم في الطريق ، سيد قطب ، ط / دار الشروق – القاهرة .
- المعجم الكبير للطبراني ، ط / مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ط / الثانية .
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ط / دار الفكر – بيروت ١٣٩٩هـ .
- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية – القاهرة .
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت ، ط / الأولى ١٤١٧هـ .
- مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة ، د / خالد اللاحم ، ط / مكتبة الصديق – القاهرة ، ط / الثالثة ١٤٢٩هـ .
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت .

- مفهوم التدبر في ضوء القرآن والسنة وأقوال السلف وأحوالهم ، د / محمد الربيعة .
- من الآثار الإيمانية لتعليم وتعلم القرآن الكريم على الفرد والمجتمع ، د / شعبان محمود مقلد ، بحث منشور على شبكة الإنترنت ، موقع الألوكة .
- منهج السلف في تلقي القرآن وتدبره ، د / محمد الربيعة ، مقال منشور على شبكة الإنترنت ، موقع ملتقى أهل التفسير .
- المنهج النبوي في التعليم القرآني ، د / عبد السلام المجيدي ، ط / جمعية المحافظة على القرآن – الأردن ط / الأولى ٢٠٠٥ هـ .
- الموطأ للإمام مالك بن أنس ، ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٦هـ .
- نظرات في التربية الإيمانية ، د / مجدي الهلالي ، ط / مؤسسة اقرأ – القاهرة ، ط / الأولى ١٤٣١هـ
- النهاية في غريب الحديث والأثر لأبي السعادات ابن الأثير الجزري ، ط / المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩هـ .

فهرس الموضوعات